قصص فرعونية :

٢ ـ قصـــة سينوحيت

لأديب مصري قديم

للأستاذ محمد خليفة التونسي

[ملخص ما نشر في العدد ٦٦٣]

أشرك ملك مصر أمنمحت الأول قبل وفاته بعشر سنوات ابنه وولي عهده أسرتسن الأول في حكم مصر ، وكان أسرتسن يقوم بقيادة الجيوش في حملاته على البلاد الخارجية بينما يبقى أبوه في العاصمة لتدبير شئون مصر .

في إحدى حملات أسرتسن على ليبيا كان يرافقه بطل القصة سينوحيت الذي كان حافظ أختام الملك ونديمه ومستشاره والقيم على شئون الغرباء ، وبينما الجيش عائد إلى العاصمة من الغرب جاء رسول من القصر إلى أسرتسن يحمل إليه نعي أبيه سراً ، وسمع سينوحيت بموت أمنمحت فقرر الفرار من الجيش بل من مصر ، لأنه رأى أن في بقائه فيها خطراً على حياته بعد موت أمنمحت واستبداد أسرتسن بالأمر فيها ، فاختفى في أحد الحقول حتى مر الجيش على مكمنه فلم يره ، ثم سار إلى سنفرو ثم الجيزة ثم عبر النيل إلى الشرق على طوف وجده هناك حتى وصل الجبل الأحمر ، ثم سار إلى الشمال مجتازاً مسلحة عند عين شمس كانت تحمي مصر من غارات الآسيويين ثم انحدر في وادي كيمور (طوميلات) وفيه كاد يهلك ظمأ لولا أن عثر عليه رجال من السانى (بدو آسيا) فعرفوه وأنقذوه وأضافوه عندهم أياماً ، ثم رحل عنهم إلى أدوم . . وها هو ذا سينوحيت يروي بقية القصة . . .

لم تطل إقامتي في أدوم[1] أكثر من ستة أشهر ، وهناك وافاني من الأمير أمونشي الحاكم على مرتفعات تنو[2] رسول يطلب مني أن أرحل إليه ، إذ كان في حاشية هذا الأمير بعض المصريين الذين كانوا يعرفونني، فوصفوني عنده ، وأخبروه بعزاتي[3]

(١) ، (٢) أدوم مكان زراعي في الجنوب الشرقي من فلسطين شمال خليج العقبة ، وبجانبه مرتفعات كان يطلق على سكان بعضها تنو ؛ وأميرهم في ذلك الوقت هو أمونشي كما يسميه الكاتب ، وقد كانت خيرات هذا المكان وفيرة تترك للقصة تفصيلها .

(٣) يلاحظ أن معرفة جموع الساني في الصحراء وبعض حاشية الأمير أمونشي لبطل القصة عنوان على عظيم مكانته في البلاط المصري ، وعلى اهتمام الأمم الساكنة شرق مصر بأخبارها ، وكان لقربها منها واختلاط أهل البلدين معاً أثر كبير في ذلك كما يفهم من القصة .

فلبيت دعوته وأتيت ، فطلب مني الإقامة معه معللا ذلك بقرب بلاده من مصر ، وبأن من اليسير علي ، وأنا في بلاده ، أن أقف على ما يجري في مصر من أحداث .

وربما كان الرجل خالجه أن أمراً ما هو الذي الجأني إلى أن أهجر بلادي ، فشاء الوقوف عليه ، فحاول استدراجي لأكشف له عنه ، فسألني عما دفعني إلى المجيء ، وعما جرى في البلاط ، وما إذا كان الملك سحتب آب رع (أمنمحت الأول) قد رحل إلى السماء[1] .

فهمت حيلة الرجل فلم تنطل علي ، وقلت له مداوراً حتى لا يهتدي إلى ما كان : « إنني لم آت هنا فراراً من ذنب جنيته : فأنا لم أنطق بفاحشة ولا أصغيت إلى رأي امرىء ، ولا حوكمت أمام القضاء ، ولكني — إذ كنت في تمهو (ليبيا) — ترددت في السفر ، غير أنني وجدت أنه لا يليق بشجاعتي أن أعدل عما أزمعت من الرحلة فرحلت ، لم يكن من أمري غير ما حدثتك ، فأنا لا أدري ما دفعني إلى هذا الاقليم » .

قال الأمير : « إنما هي مشيئة الإله الكريم[2] ، وإن ذكره ليلقي من الروع في قلوب الأجانب ما يلقي عام القحط في قلب الفلاح » .

فقلت : « عفواً فلقد تسلم ابنه مقاليد الملك ، وتربع على عرشه ، وإنه لفريد بين من سبقوه في أخلاقه وعظمته ، فهو حازم أريب في كل مايدبر من أساليب ملكه ، وهو يسبغ عطفه على كل من يخلص له ، وهو — إلى ذلك — قائد بارع دوخ بجيوشه الأقطار الأجنبية عند ما كان أبوه حياً في القصر[3] ، وهو بطل صنديد فريد في قتاله : إنه — إذا دارت المعركة —

(١) يلاحظ أن الأمير يريد التجسس على أحوال مصر من سينوحيت الذي يفطن إلى مقصده فأخذ يراوغ في الجواب ، ثم يمسكه في رفق وكياسة بما يملأ قلبه خوفاً من مصر وإجلالا لها بعد أن ينفي عن نفسه التهم من الذنوب ، حتى يبين للأمير الذي ظنه مجرماً مضطراً إليه ، سهل الكشف عن عورات وطنه أنه ليس مضطراً إلى الاغتراب ، وأنه ما يزال مخلصاً لوطنه غيوراً عليه .

(٢) هو الملك ، وقد كان المصريون أول من ألهوا ملوكهم وأسبغوا عليهم صفات الآلهة .

(٣) حكم أسرتسن الملك مصر في آخر حياة أبيه أمنمحت الأول عشر سنين كما ذكرنا في المقدمة ، وكان أبوه يخلفه في الحكم عند ارتحاله للحرب كما يفهم من القصة .

ليقتحم صفوف أعدائه الطَّغام غير هياب ولا وجل ، فيطيحُ أبواقهم ، ويهشم جماجمهم ، ويصدع صفوفهم بضرباته القوية حتى يشل قواهم ، فيكفوا عن القتال ، ويولوا الأدبار ، وهو مقتحم لا يأبه بالأخطار ، ولا قبل لأشجع الشجعان بالوقوف في وجهه ، كما أنه عداء سريع لا يستطيع أحد أن يفلت منه ، بل يتخطفه قبل أن يبلغ مأمنه ، وإذا ما استحرَّ القتل انقضَّ على أعدائه فنفضهم من حوله نفضاً ، وهجم ذات اليمين وذات الشمال ومن الخلف ومن الأمام ، وتساقطت ضرباته المنيفة الثقيلة في كل ناحية ، والويل لمن حلت عليه إحدى ضرباته ، إنها لتجندله وتسحقه ، إنه هو الأسد الهصور ينشب برائنه في أعدائه بلا شفقة ، فإذا هم كالكلاب الذليلة الخاشعة قد انفضوا من حوله ، حتى إذا ما انهزموا لم يدعهم بل يطاردهم حتى يلحق بهم ، ويمزقهم شر ممزق . لقد أمدته الآلهة ببطشها وجبروتها ، وإنها دائماً لترعاه ، وتكفل له الغلبة على الأعداء الذين لا يؤمنون بها . وقد جمع إلى كل ذلك فضائلَ جمَّة ؛ فهو أنيس حلو الشمائل لطيف المعشر نافذ البصيرة قدير على أن يخلب الألباب ويستميل القلوب ، وما من أحد في شعبه إلا وهو يؤثره على نفسه ، ويفتديه بحياته . وقد تمرَّس بالحكم ومصاعبه منذ ولد ، وكان مولده بشيراً بتكاثر الثروات ، وشعبه متمسك به ، يحبه ويستريح إلى حكمه ، وهو حريص على أن يمد حدود مصر نحو الجنوب ، وإن كانت الأقاليم الشمالية لم تخضع له[1] ، وهذه قبائل الساتي[2] لم تذق ضرباته ، ولكن من يدرى فربما اجتاح يوماً هذه الأقاليم ،

(١) كانت العاصمة أولا طيبة (قرب الأقصر) في الجنوب وكان سلطان الملك ضعيفاً على الشمال بدليل تجول قبائل الساتي الأجنبية بلا رقابة شمالي عين شمس كما ورد في القصة ، وكانت عناية الملك متجهة إلى الغزو جنوباً ، ثم صارت العاصمة في الشمال قرب منف لتكون وسطا ولتسهل منها مراقبة الدلتا وحمايتها .

(٢) قبائل أسيوية كانت تتجول حينذاك في الأراضي التي تمتد من الدلتا إلى الشرق ، ولم يكن المصريون يأبهون بتجوالها لأنهم لم يكونوا مسيطرين على الدلتا كل السيطرة ، ولأنهم كانوا دولة متحدة قوية منظمة بينما هذه القبائل رحالة متفرقة ضعيفة ، ولم يكن المصريون حينذاك قد ذاقوا مرارة الاحتلال ، وكانت لهم على الحدود الشمالية الشرقية مسالح تحميها من الغارات منها مسلحة عين شمس المشار إليها في القصة ، وقد استطاعت هذه القبائل بعدئذ فتح مصر وإخضاعها وهم المعروفون بالهكسوس .

فخير لك أن تقدم له فروض الولاء حتى يعرفك ، ولا ريب أنه سيشملك بعطفه[1] » .

فقال : « ما أسعد مصر ! إن موقعها حسن وشئونها مدبرة بإحكام وسداد ، وهأنذا أعاهدك على أن أقدم إليك كل مساعدة أستطيعها ما دمت أنت بجانبي آية تقديرى لمصر التي أنت منها » .

وقد أوفى الأمير بعهده فزفَّ إليَّ كبرى بناته ، وترك لي أن أختار ما أشاء من أرضه ليقطعني إياه ، وكان — فيما عرض عليَّ غير ذلك — مقاطعة « له على جانب عظيم من الخصوبة ووفرة الثمرات ، اسمها « ياع » كانت حافلة بالحبوب من حنطة وشعير ، فياضة بالفواكه من عنب وتين ، زاخرة بالعسل ، ونبيذها كثير كالماء ، وكانت تمرح فيها قطعان لا حصر لها من الماشية[2] .

ولم يقنع الأمير أن غمرني بعطاياه ، بل أقامني — رغبة في استبقائي إلى جانبه ، والانتفاع بي في ولايته — أميراً على قبيلة من أضخم القبائل التي تمرح في ولايته ، فكان رجالها يتكفلون بطعامي كل يوم ، فيقدم لي خير الأطعمة من خبز ولحوم وطيور وغزلان ، وأشهى الأشربة من لبن ونبيذ ، وكان يقدم لي الزبد مستخلصاً من اللبن ، وكثيراً ما كنت أصيد الغزلان أو تصيدها لي كلابي المكلَّبة[3] فوق ما كان يُقدَّم إليَّ من رجال القبيلة .

أقمت في تلك القبيلة سنوات طويلات رزقت في أثنائها عدة أولاد ، ولما بلغ أولادى أشُدَّهم جعلتهم زعماء على العشائر ، وكنت حاكماً باراً كريماً أمد الطعام للجوعان ، والماء للظمآن ، وأبسط رعايتي على كل من يطلب الأمان ، وأبذل عوني لكل من أذله الزمان ، وأعاقب اللصوص وقطاع الطرقات ، حتى عم

(١) لا ينتظر من مهاجر ضاق وطنه عن إيوائه وهرب بحياته خوفاً من ملكه أن يكون أشد وطنية ولا أبلغ قولا من سينوحيت فقد جمع في جوابه المبين الأريب بين الترهيب والترغيب ، فنزع من قلب الأمير كل طمع في عداوة مصر ودل على أن حالها لم تتبدل شراً بل خيراً بموت السابق وتولية اللاحق ، ورفع ملكه ، وهو الفار من وطنه خوفاً منه ، إلى أعلى منزلة ، وملأ قلب الأمير اطمئناناً إلى خلائق الملك وطيب شمائله وميلا إلى حبه والوفاء له من طريق غير مباشر فهو يتحدث بما يتحدث كأنه يصف أمراً لا يعنيه سوى إحقاق الحق فيه ، وهو يترك للإيحاء أن يفعل فعله للوصول إلى ما يطمع فيه .

(٢) لا تزال هذه البلاد حتى اليوم على ما وصفتها القصة

(٣) المدربة على الصيد .

الأمن والرخاء إقليمى ، وكنت أواسى بمالى من انتهب ماله ، وكان قصرى ملجأ لذوى الحاجة ، وماضننت بمساعدتى على أحد ممن لاذ بى .

وكان الأمير قد أسند قيادة جيشه إلىّ ، فكنت فى غزواتى عند حسن رأيه فىّ ؛ وأظهرت من البسالة والحنكة ماظننى أهله ؛ فما غزوت قوما إلا انتصرت عليهم ، وظفرت منهم بغنائم كثيرة وماعدت من حرب إلا وأنا أسوق معى أسراهم وماشيتهم ، وكنت لا أنفك أدبر مكايد الحروب ، وألتقى فى المعارك بنفسى ضاربا بحسامى أو راميا بنبالى(١) ، وكانت جموع الساتى تهجم على بلاد الأمير فتعيث فيها فسادا ، فاستطعت أن أوقف غزواتهم وأنقذ البلاد من شرورهم ، وأردهم إلى مواطنهم فى القفار .

ولما نمت أخبارى إلى الأمير عظمت مكانتى عنده ، وتمكنت محبتى فى قلبه .

وكان هناك فى أرض تنو بطل صنديد شديد البأس لا نظير(٢) له فى قوته وشجاعته ونزاله ، وربما كان قد امتدت عيناه إلى ما أنا فيه من نعم وفيرة وخير سابغ ، فطمع فى أن يقتلنى ليستحوذ على ثروتى .

جاء هذا الرجل يوما يتحدانى ويطلب مبارزتى ، فلم أدر ما دفعه إلى معاداتى ، ولما استشارنى الأمير فى أمره أجبته : « لست أعرف الرجل ، ولا أرانى ندا له فى بطشه ، ولا كفؤا له فى قتاله ، ولا أذكر أننى انتهكت له حرمة ، ولا هجمت دارا ولا عثت فى أرض . فماذا يدعوه إلى مبارزتى ! لست أظنه إلا حسودا .

ليعلمن هذا الزنيم أننى لست كالعجل بين البقر يتربص(٣) هجوم الثور عليه ليفتك به ، فإن الثور المرير(٤) ولوع بالنطاح ، وليس على الثور الخرع إلا الفرار . سأتدبر أمرى معه ولو أنه بدوى مدرب على القتال ، ولنتركه وشأنه حتى يظهر أنه شجاع مقدام ولوع بالنزال وأنه يمنى ما يتوعد به » .

شاع خبر المبارزة فى البلد وما جاوره ، وبات أهل تنو ليلتهم تلك ومالهم من حديث تلوكه ألسنتهم إلا حديث المبارزة بينى وبين البدوى فى الصباح . ونمت أنا تلك الليلة حتى إذا ما تنفس الصبح نهضت من نومى لآخذ للمبارزة عتادها ، فأعددت قوسى ووضعت

(٢) النبال الهام . (٢) النظير المثيل .
(٣) يتربص ينتظر . (٤) المرير القوى .

نبالى فى كنانتى(١) ، وما طلعت الشمس حتى كانت الجموع ممن نمى إليهم خبر المبارزة فى الجهات المجاورة قد تجمهرت لشهود المبارزة ، وكان القوم يبكون ، والنساء يعولن خوفا على من خصمى الجبار الذى جاء ليبارزنى وقد لبس درعه ولأمته ، وحمل فأسه وتأبط كنانته الحافلة بالنبال ، وكان المتجمهرون فى حزنهم يودون لو أن مبارزا غيرى افتدانى وتقدم عنى لمبارزته .

وحل موعد المبارزة فخرجنا ، ودعوته إلى أن يبدأ الرمى ففوق نباله إلىّ ، بيد أنى حدت عن طريقها فطاشت نبلة فنبلة ، وحلت نوبتى فتفترت له ثم سددت إليه قوسى ، وما هو إلا أن أطلقت نبلتى الأولى حتى أصمته فى نحره ومرقت من عنقه فخر مجدلا يتلوى ويصرخ من شدة أوجاعه ، فاستللت فأسه التى أعدها لذبحى وأجهزت بها عليه ، ثم وقفت فوقه وهتفت بأعلى صوتى هتاف الانتصار

عندئذ صاح المتجمهرون صيحات الفرح والغبطة ، حتى لقد بلغ الأمر بمن كانوا معه أن عداهم هذا الشعور الفياض فشاركوهم فى ابتهاجهم وحمدوا إلههم منت إله الحرب وأثنوا عليه ، كما ركعت له وصليت إذ مكننى من عدوى . وعندئذ أقبل على الأمير فاحتضننى وعانقنى عناقا حارا دل على محبته وإخلاصه لى ، وابتهاجه بفوزى على غريمى .

وقد انتقمت من خصمى ما وسعنى الانتقام ، فصنعت به مثل ما أجمع رأيه على أن يصنع بى ، فما كدت أفرغ من القضاء عليه حتى ذهبت إلى فسطاطه فحطمته بعد أن استحوذت على كل ما فيه من متاع ، كما ضممت إلى ثروتى كل ما كان له من أنعام .

ونبهتنى هذه الواقعة إلى حقيقة حالى ، وأحسست بآلام وحدتى فى غربتى ، وفرط شوقى إلى وطنى ، فعملت على تقوية مكانتى بالاستزادة من الأموال والأنعام لتكون عونا لى عند البلاء ، كما بعثت إلى مولاى الملك هذه الرسالة : « لقد جعلت الإله معتمدى ، فانظر — يا مولاى — ما وهبنى من خير جزاء اعتمادى عليه . لقد غادرت وطنى مهاجرا خاملا ، فصرت ذا ولاية وسلطان ، ونبه صيتى . وهأنذا — بعد أن كدت أهلك من المخمصة — صرت أمد الناس بالطعام ، وبعد أن كنت عريان أصبحت أختال فى أنفس حلل الكتان ، وبعد أن كنت وحيدا طريدا أصبحت ذا أسرة كثيرة الأبناء ، وفى خدمتى كثير من الحشم ، ولى قصر باذخ فخم ، وأراض خصيبة شاسعة .

(البقية فى العدد الآتى) محمد خليفة التونسي

(١) الكنانة وعاء من جلد للسهام .